9- افعل الخير

غيِّر العالم، حتى ولو بطريقة بسيطة

أحدث فرقاً وساعد الآخرين

لا تؤذِ

فكر دائماً في ما يمكنك فعله لتساعد

لقد تربيت لأعتقد أن باستطاعتنا جميعاً تغيير العالم. اعتقدت أن من واجبنا مساعدة الآخرين وفعل الخير حين نستطيع ذلك. أنا متأكد من أن مدير مدرستي أصابه الذهول عندما كتبت تقريراً مطولاً حول الكيفية التي يمكنه بها تحسين تسيير المدرسة. وأنهيت تقريري بعظمة بالكلمات الآتية: «سأكون مهتماً جداً بآرائك حول هذا، وأي مبلغ يمكن توفيره يمكن وضعه لتحقيق خطتي اللاحقة...».

لم يضحك ولم يضربني بالخيزرانة بسبب صفاقتي. وإنما أعاد لي تقريري وقال بجفاء: «حسناً جداً يا برانسون. انشر التقرير في مجلة المدرسة».

بدلاً من ذلك، تركت المدرسة وبدأت مجلتي الخاصة بي. كنت أريد أن أستخدمها منصة لتغيير الأمور. عندما كنت أنا وشقيقتي لندي نحاول بيع نسخ من مجلة STUDENT في الشارع، طلب مني أحد المتسولين أن

أعطيه مالاً. لم أكن أملك فلساً واحداً، ولكنني كنت في غاية الحماس لأفعل خيراً لدرجة أنني مزقت ثيابي وأعطيتها له. ونتيجة لذلك، اضطررت لأن أقضي بقية اليوم ملتفاً ببطانية، غير أنني أحسست بأنني في غاية الشهامة.

كانت إحدى الطرق التي جربناها لمساعدة الناس هي تأسيس مركز لتقديم المشورة للطلاب حيث كان يمكنهم الاستفسار عن أي شيء من شقق سكنية حتى المنح، ولكن الأمور الجنسية كانت معظم ما يطلبون النصح بشأنها. في ذلك الوقت، لم يكن هناك أي مكان آخر يذهبون إليه للحصول على نوع النصح الذي كنا نقدمه. وقد أبلى المركز بلاء حسناً لدرجة أنه لا يزال مستمراً بقوة رغم مرور 35 سنة.

أمضيت السنوات القليلة اللاحقة في بناء شركة فيرجن. كان جني المال شيئاً جيداً ولكنه لم يكن هدفي الرئيس في الحياة. إنني أستمتع بالعمل الجاد، الرجل الذي أسس شركة إيكيا IKEA يقسم يومه إلى أقسام مدة كل منها عشر دقائق. هو يقول: «حين تنقضي عشر دقائق فهي تنقضي إلى الأبد. قسم حياتك إلى وحدات كل منها عشر دقائق، ولا تهدر دقيقة واحدة». ومع ذلك، ليس عليك أن تملأ وقتك وأنت تندفع من أجل الاستفادة من وقتك بحكمة. بل غيتس (Bill Gates) ـ الذي يأتي على رأس قائمة المتبرعين للأعمال الخيرية ـ قال إن بإمكان مستخدميه قضاء ساعتين وهم يحملقون في الفضاء، طالما أن أذهانهم تعمل. حين أتى البرت آينشتاين بنظريته النسبية، كانت في رأسه دون ورقة أو قلم وإنما دوّنها فقط لاحقاً. وأقول بصدق إنني أهيئ جميع أفضل أفكاري في

رأسي أيضاً. ولأنني لا أستخدم يديّ من أجل عملي، لربما هذا هو السبب الذي يجعلني أستمتع بأن آخذ إجازة من أجل المهام البدنية الصعبة، مثل عبور الأطلسي في زورق.

يقال إن المال هو أصل كل علة. ليس لزاماً أن يكون كذلك، إذ يمكن استخدامه من أجل فعل الخير. لقد أسس أكبر الجمعيات الخيرية في العالم رجال ونساء أثرياء، ولكن بعضها تأسس من لا شيء يذكر تقريباً. هارفارد أغنى جامعة في أمريكا، هي وقف خيري. فقد بدأت تعمل ببضعة كتب ومبلغ 350 دولار فقط لا غير. بدأت شركة إيكيا أعمالها في سقيفة حديقة. وإن شركتها الأم هي وقف خيري، الرجل الذي حقق حلم بغ ماك (Big Mac) بدأ حياته في بيع أكواب من الورق. وكان أحد الأشخاص الذين لا يؤمنون بهدر الوقت. وكان يقول لمستخدميه دائماً: «إذا كان لديكم وقت للاتكاء، إذن فلديكم الوقت للتنظيف». لعله كان في عجلة من أمره لأنه لم تطرأ في رأسه فكرة تأسيس مكدونالدز إلا حين بلغ الثانية والخمسين من عمره. وتقدم شركته الآن للأعمال الخيرية مبلغ خمسين مليون دولار سنوياً.

وبالتالي، يمكن أن يكون المال قوة للخير. ولكن لا تحتاج لأن تكون غنياً من أجل فعل الخير. اعتاد الأطفال جمع الورق الفضي وعلب الكولا الفارغة لجمع مال لأغراض خيرية. واليوم يقومون بحملات خيرية أو يتبرعون لمؤسسة Live Aid. هناك طرق عديدة لمساعدة الآخرين. وإحدى الطرق البسيطة الجديدة هي عدم الإيذاء، وهذا لا يكلف شيئاً ألبتة.

حين بلغت سن الأربعين، كنت في حالة يرثى لها. إذ كنا نتصارع مع شركة الخطوط الجوية البريطانية من أجل مكان في السماوات. كان قد تم اختيارنا عن طريق التصويت بوصفنا أفضل خط طيران لدرجة رجال الأعمال في السنة، ولكنها كانت معركة مستمرة من أجل العثور على ما يكفي من المال للاستمرار في العمل. إن سلسلة شركة موسيقى فيرجن للأسطوانات الناجحة جداً هي التي أبقتنا مستمرين في العمل. سايمون، الذي كان يدير شركة فيرجن للموسيقى، بدا أنه أخذ يفقد الاهتمام بها، على الأغلب لأنه اعتقد أن شركة الطيران سوف تؤدي بنا إلى الإفلاس. جلست وأخذت أستعيد مجرى حياتي في ذهني. تساءلت إن كان ينبغي لي فعل أي شيء جديد، أو إن كنت بحاجة لأن أجري تغييراً كاملاً. لم أكن قط قارئاً كبيراً، ولكن أحببت فكرة أن يكون لدي مزيد من الوقت للقراءة.

قلت لجوان: «أعتقد أنني ربما أذهب إلى الجامعة لنيل درجة الدبلوم في التاريخ».

وكان ردها الفظ: «إنك فقط تريد ملاحقة الفتيات الجميلات».

هل كانت محقة؟ هل كنت أجابه أزمة منتصف العمر؟

لربما. لذلك، بدلاً من التفكير بما يمكنني فعله من أجل ذاتي، تساءلت إن كان باستطاعتي فعل المزيد للآخرين. فكرت في إمكانية العمل في مجال السياسة. يمكنني استخدام مهاراتي في مجال الأعمال لتحقيق أمور نافعة بخصوص قضايا رئيسة، مثل محاربة شركات السجائر. يمكنني أن أموّل علاجاً للسرطان، أو أن أمعن النظر في الرعاية الصحية أو أن أساعد المشردين.

كانت هناك أمور عديدة أستطيع فعلها وتجعلني أشعر بأنني نافع. وقد استمررت في اتباع هذا الطريق لبقية حياتي.

أعتقد أنه ينبغي لنا جميعاً تقييم حياتنا من حين لآخر. هل حققنا أهدافنا؟ هل هناك أشياء لا نحتاجها يمكننا التخلص منها؟ لا أتكلم عن التخلص من أحذية قديمة أو كراسي مكسورة. أعني أننا نحتاج إلى التخلص من عاداتنا القديمة أو أساليبنا الكسولة التي تعيقنا وترهق أذهاننا.

كان ابن عمي سير بيتر سكوت (Sir Peter Scott) يدير محمية لطيور المستنقعات. عندما أخبرته أنني أريد بحيرة في منزلي في أكسفورد لاجتذاب الطيور البرية، جاء وأسدى لي نصيحة. حفرت الأرض من أجل البحيرة وبنيت جزراً عدة لكي تبني الطيور أعشاشها عليها. كان طيور البجع والبط والإوز ومالك الحزين تفد إلى البحيرة من كل مكان. كانت بقعة هادئة، مكان بوسعي أن أفكر في الأمور بتروٍّ. عادة، أحب أن أكون في جمهرة من الناس أو مع عائلتي، ولكنك أحياناً بحاجة إلى مجال. أحب المشي حول البحيرة بمفردي لمجرد التفكير.

حين كنت أكافح من أجل إنقاذ شركة الطيران، كانت واحدة من المرات القليلة التي شعرت فيها بالضياع الكامل. وبينما كنت أمشي حول البحيرة، كانت لدي بعض القرارات المهمة لأتخذها. وعندما أخبرت المصرف أن شركة فيرجن للموسيقى تساوي ما لا يقل عن نصف مليار جنيه، أراد مني المصرف أن أبيع الشركة لتغطية القروض التي قدمتها لشركة الطيران. كان أمامي خياران: إما أن أغلق شركة الطيران أو أن أبيع شركة الأسطوانات. كانت المشكلة هي اعتقادي أن باستطاعتي الاحتفاظ بالاثنين معاً. كل ما كنت بحاجة إليه هو أن يحتفظ المصرف بهدوء أعصابه. بدا لي أن ديون المصرف في أمان طالما أنه يعرف مدى قيمة جانب الموسيقى. ولكن لا تحب المصارف المجازفة، وقال : إنني إذا رفضت البيع، فإنه سوف

يسحب قروضي. لم أكن متأكداً مما ينبغي لي فعله. كنت أحب شركة فيرجن للموسيقى، وكنت أعرف أنها سوف تواصل النمو كشركة. كنا قد تعاقدنا للتو مع فرقة Rolling Stones أيضاً، وشعرت وكأنني أخذل الفرقة وجميع الموسيقيين الآخرين العاملين معنا. لم أكن متأكداً مما علي فعله في ذلك اليوم الممطر بينما كنت أمشي حول البحيرة.

في خضم هذا الوقت الباعث على القلق، في أغسطس/آب 1990، غزت العراق الكويت. سمعت أن 150 ألف لاجئ عبروا إلى الأردن. كنت صديقاً للملك حسين والملكة نور. كانت الملكة امرأة جميلة، وهي مهندسة معمارية عالية التدريب أمريكية من أصل عربي.

التقت زوجها بينما كانت تعمل في الخطوط الجوية الأردنية. كان لنا الكثير من الأشياء المشتركة. وقد شاهدتني على شاشات التلفاز في أثناء رحلتي الجوية بالمنطاد حول العالم، واتصلت هاتفياً لتسأل عما إذا كنت أوافق على تعليم العائلة المالكة الطيران في منطاد.

كنت قد شحنت منطاداً إلى الأردن والتقيت العائلة المالكة. وكانوا جميعاً لطفاء كما كانت هي وأولادها مهذبين وودودين. أمضيت وقتاً رائعاً وأنا أحلق فوق العاصمة وأنا أشاهد أسفل الأسطحة القديمة المغطاة بالقرميد الأحمر. وعندما أدرك الناس في الأسفل أنه مليكهم وملكتهم كانا يطوفان في سلة من خيزران فوق رؤوسهم، كانوا يتراكضون وينظرون إلى الأعلى مهللين. كان وقتاً عصيباً بالنسبة للملك، فقد تعرض لمحاولات عديدة للاعتداء على حياته وكان رجال الحرس الخاص المسلحون يحيطون به دائماً عندما كان في السماء دونهم. ولكن بالنسبة للملك حسين، كانت لحظة مميزة من الحرية الكاملة.

حين غزا صدام حسين الكويت، شاهدت على شاشة التلفاز آلاف اللاجئين يتدفقون عبر الحدود. اتصلت هاتفياً بالملك حسين والملكة نور مستفسراً عما إذا كان بوسعي تقديم المساعدة. كنت أريد أن أحدث فرقاً. قالت الملكة: إنها ستنظر ما يلزم فعله وإنها ستخبرني لاحقاً. في وقت لاحق من ذلك اليوم، اتصلت بي لتسأل إن كان بوسعي تأمين بعض البطانيات لهم. كانت الصحراء حارة جداً نهاراً وباردة جداً ليلاً. وقالت إنه يمكن نصب البطانيات لتعطي ظلاً أثناء النهار. وفي الليل يمكن للناس أن يلتفوا بها من أجل الدفء. قالت الملكة نور: «لقد مات عدد قليل من الأطفال».

سألت: «كم بطانية تريدون؟» قالت: إنهم بحاجة إلى مائة ألف بطانية. «لدينا فقط يومان أو ثلاثة أيام قبل أن يبدأ المئات بالموت. الأمر عاجل يا رتشارد».

هب موظفو شركة طيران فيرجن للعمل وأخذوا يتصلون هاتفياً بكل مكان. وفي غضون يومين، كانت إحدى طائراتنا من طراز جامبو في طريقها إلى الأردن، تحمل أربعين ألف بطانية وأطناناً من الأرز واللوازم الطبية. وعادت طائرتنا وهي تنقل على متنها رعايا بريطانيين انقطعت بهم السبل في الأردن. وحال عودتي إلى بريطانيا، قيل لي إن رئيس شركة الخطوط الجوية البريطانية كان في حالة من الجنون لأنه لم يتم طلب شيء منه. وقد قيل له: إنني قد عرضت بينما هو لم يعرض. في الواقع، كان قد رفض على ما يبدو السماح لشركته بالمساعدة إبان الأزمات الدولية، حتى عندما فاتحته مؤسسة العون المسيحي (Christian Aid). وهكذا، على الفور، وجد حمولة من البطانيات وبادر بإرسالها إلى الأردن. كنت مسروراً لأن المثل الذي قدمناه قد دفعه جزئياً لتقديم المساعدة.

عندما سمعت أن إمداداتنا لم تصل إلى جميع اللاجئين، طرت إلى الأردن ومكثت مرة أخرى مع الملك والملكة في القصر الملكي. تجادلت مع أحد الوزراء الذي عرفت أنه جمد الأمور، وجعلته يرسل الإمدادات إلى مخيمات اللاجئين. أجريت أيضاً مباحثات مطولة مع الملك حسين بشأن صدام. كان الملك يريد أن يظل الأردن محايداً في النزاع الذي كان يبدو محتملاً حتى ذلك الوقت. كان بلده في موقف ضعيف جداً كما رأى جانبي الصورة. وكان يأمل في أن يتم حل الأمور عبر المحادثات، ولكنه كان قلقاً من احتمال أن يدخل الغرب في حرب لحماية حقول النفط في الكويت. كان يعرف أن الوقت المتاح قصير جداً.

بعد بضعة أيام، كنت أشاهد الأخبار في لندن، حين شاهدت صدام على شاشة التلفاز. كان قد أخذ رهائن بريطانيين وكان يستخدمهم بمثابة دروع بشرية. فكرت في ما يمكنني فعله للمساعدة. كنت واحداً من عدد قليل جداً من الأشخاص الغربيين الذين لديهم وصول مباشر إلى الملك حسين. وكان بدوره أحد الأشخاص القلائل جداً الذين كان صدام يثق بهم. يمكننا تجاهل جميع الأشخاص الغاضبين في الوسط، وربما نفعل شيئاً ما قبل أن تكون هناك حرب. راودتني فكرة احتمال قبول صدام بتبادل الرهائن بإمدادات طبية وباحتمال أن يتحدث الملك حسين مع صدام ويقدم اقتراحي إليه. اتصلت بالملكة نور وسألتها إن كان بوسعها المساعدة في خطتي.

«قالت لي: «تعال وابقَ معنا، يا رتشارد. يمكنك بحث الاقتراح مع الملك بنفسك».

عدت إلى الأردن وأمضيت ثلاثة أيام وأنا أتكلم مع الملك حسين. وافق على وجوب القيام بعمل ما سريعاً قبل أن تسوء الأمور. جلست وكتبت بخط اليد بالكثير من الحذر رسالة مهذبة جداً إلى صدام. سألت إن كان يوافق على إخلاء سبيل جميع الأجانب الذين كانوا محتجزين في العراق. ومن أجل إبداء حسن النية، كنت مستعداً لأن أتوجه جواً حاملاً الإمدادات الطبية التي كان العراق بحاجة إليها، ووقعت الرسالة «بكل احترام، رتشارد برانسون».

بعد تناول العشاء في تلك الليلة، أخذ الملك رسالتي إلى مكتبته وترجمها إلى العربية وكتب هو أيضاً رسالة تغطية شخصية موجهة منه إلى صدام وأرسلها بوساطة رسول خاص إلى العراق. لم يكن بوسعي فعل المزيد، فعدت إلى موطني.

بعد ليلتين، سمعت من الملك حسين، كانت أخباراً طيبة، قال صدام: إنه مستعد لإخلاء سبيل الرهائن المرضى والنساء والأطفال، ولكنه يريد شخصاً ذا مكانة ليطير إلى العراق ويقدم له الاقتراح شخصياً في مقابلة مرئية. اتصلت هاتفياً بالسير إدوارد هيث (Edward Heath)، رئيس الوزراء السابق، كانت علاقتنا طيبة بسبب اهتمامنا المشترك بالزوارق. وبكل شجاعة، وافق على الذهاب إلى العراق على الفور. وكانت الخطة تقضي بأن يطير أولاً إلى الأردن للبقاء مع العائلة المالكة ومن هناك يحصل على رحلة آمنة إلى العراق.

في اليوم التالي، اتصل بي الملك حسين هاتفياً ليقول لي: «لدي أخبار طيبة لك، سيدي. يمكنك الاستعداد للذهاب إلى العراق. أعطاني صدام وعداً بأنك ستكون في أمان».

كان لدي قلق رئيس واحد قبل أن أبدأ الرحلة، رغم الوعد الذي حصلت عليه من الملك حسين، توقع كثيرون أن يأخذني صدام مع إدوارد هيث رهينتين وأن يحتجز الطائرة. وبسبب المجازفة، لم يكن لدينا تأمين. في حال استولى صدام على الطائرة، فإننا سوف نفلس. كنت أجازف بكل شيء في هذه المغامرة، ولكن كثيراً من الناس كانوا يعولون علي. لن يكون هناك تراجع.

عندما غادرنا العراق مع الرهائن وإدوارد هيث بأمان على متن الطائرة، شعرنا بمنتهى الارتياح لدرجة أننا احتفلنا بالحدث طوال رحلة العودة. ولكن شخصاً واحداً لم يكن مسروراً. فقد قال رئيس شركة الخطوط الجوية البريطانية: «من يعتقد رتشارد برانسون نفسه؟ هل هو جزء من وزارة الخارجية اللعينة؟».

بعد ذلك، كتبت في مفكرتي: «ما هي بواعث القيام بأمور كهذه؟ قبل شهر، كنت في حالة من اليأس الشديد لدرجة أنني شعرت أن حياتي لم تعد تخدم أي غرض. وقد أثبتّ نفسي في مجالات عديدة. لقد بلغت لتوي سن الأربعين وكنت أبحث عن تحدّ جديد...».

عندما أعدت قراءة ما كنت كتبته، أدركت أنني بصفتي رجل أعمال بإمكاني فعل الكثير من الخير. وقد أثبتّ ذلك مهمة الإنقاذ إلى العراق. بصفتي رجل أعمال، ألتقي أشخاصاً مدهشين مثل نلسون مانديلا، وزعماء عالميين مثل رئيس الوزراء الروسي، وأشخاصاً في غاية الثراء مثل بل غيتس وبول آلن، المؤسس المشارك لشركة مايكروسوفت والأقل شهرة. في الواقع،

كان الأشخاص العاملون في مجال الأعمال والأشخاص الأثرياء جداً في وضع فريد؛ إذ يمكنهم الاتصال بكل شخص، سواء أكان في منصب رفيع أو أدنى، في أي بلد، وذلك عبر شبكة من حسن النية.

أعتقد أنه يمكنهم استخدام تلك القوة بحكمة، من أجل خير العالم، تماماً كما قلت في أول زاوية كتبتها في مجلة Student. ابنتي هوللي، الطالبة في كلية الطب مهتمة بالمسائل الجنسية التي يواجهها الجيل الشاب في المملكة المتحدة. لقد قمنا بدورة كاملة من حيث بدأت في العالم، وهي تعرض خدماتها مجاناً حيث يمكنها ذلك في مؤسسة فيرجن Unite ومركز مساعدة الطلاب، حيث يمكن للطلاب الاتصال بنا في شارع بورتوبللو في غرب لندن إذا احتاجوا إلى نصح.

إن حبي الأصلي الذي هو الموسيقى، هو دافع قوي لفعل الخير. ما عليك إلا أن تنظر إلى Live Aid وLive 8 والعمل المدهش الذي يفعله أشخاص مثل بيتر غابرييل (Peter Gabriel) وبونو (Bono) وبوب غلدوف (Bob Geldof) في جمع الأموال من أجل تخفيف حدة المجاعة وغيرها من الكوارث في العالم الثالث للتأكد من ذلك. فعلت الأميرة ديانا الكثير الكثير من أجل الأعمال الخيرية عندما كانت على قيد الحياة، وكنت مسروراً لأنني تمكنت من مساعدتها في ذلك على نحو بسيط. كما كنت فخوراً عندما أقنعت إلتون جون (Elton John) بأن يغني Candle in the Wind شمعة في الريح في جنازتها. وقد تم بيع 33 مليون نسخة من هذه الأسطوانة على نطاق العالم وحققت المبيعات 20 مليون جنيه، ذهبت جميعها إلى المؤسسات الخيرية، تماماً مثلما كانت رغبة ديانا.

في سنة 2004، اقتربت أكثر من رؤيتي بمساعدة مزيد من الناس، وذلك بتأسيس Virgin Unite التي يقصد بها أن تكون وسيلة لحمل جميع مستخدمي فيرجن حول العالم على العمل معاً لمد يد العون في حل المشكلات الاجتماعية العويصة. آمل أن تستطيع الاستمرار في إحداث فرق.

obeikandl.com